# الفكُّ المفترس !

في بحثها عن مصادر متجددة للإثارة والرعب، غاصت بنا السينما الأمريكية في المحيط، وجعلتنا نواجه أسماك القرش، في سلسلة من الأفلام، لازالت محطات التلفاز تعرضها من وقت لآخر، تحمل اسم (الفك المفترس)، أو (الفكوك)، تبعًا للترجمة المباشرة لاسم أشهر هذه الأفلام: (JAWS) وهذه تسمية موفقة إلى أبعد الحدود، إذ إنها تختزل حقيقة وكيان ذلك الكائن المفترس - سمكة القرش - في مجرد الفكين.. إن القرش يبدو أثناء عملية الافتراس وكأنه مجرد فكين يتحركان لينهشا الفريسة، وينطبقان ليتحول البوز إلى غطاء لكهف من الرعب، مبطن بصفوف من الأنياب المدببة، المنتصبة في ميل خفيف إلى الداخل، كأنها سطح (مبشرة)، يمكنها أن تجرش العظام بسهولة .!

ولسنا نريد، بهذا الحديث، أن ننضم إلى قافلة مثيرى الرعب؛ ولكننا نهدف إلى محاولة الاقتراب من هذه الكائنات، وتدارس سلوكها الافتراسى تجاه الإنسان، لعلنا نخلص من ذلك إلى إشارات وتوصيات يمكن أن تفيد الآدميين الذين قد تلقى بهم الأقدار في مواجهة هذه المخلوقات البحرية الشرسة.

ونبدأ حديثنا بحقيقة قد تبدو غريبة؛ وهى أن أسماك القرش لا تهاجم الإنسان بغرض الاغتذاء؛ فهى من آكلات اللحوم، ولكنها ليست من آكلات لحوم البشر؛ إنها - والحمد لله - لا تستسيغ لحومنا!. فالأقراش تتغذى، بالدرجة الأولى، على الأسماك وغيرها من الكائنات البحرية؛ وسلوكها الافتراسى تجاه الإنسان هو جزء من طبعها العام، المتسم بالشراسة، والذى تحكمه عوامل ومؤثرات مختلفة.

ونود أن نؤكد على أن الدلائل تشير إلى نجاح العلماء فى توفير وسائل تأمين للإنسان من خطر هذه المخلوقات العنيفة؛ فقد اكتشف بعض العلماء أن لمادة (حلات الرصاص) تأثيرًا طاردًا لأسماك القرش فإذا خلطت هذه المادة ببعض أنواع الأصباغ الزرقاء، كانت أكثر فعالية؛ وعلى هذا الأساس فإن أى إنسان ينزل إلى البحر ومعه بعض أقراص من هذه المادة، يكون آمنًا على نفسه من هجمات الفك المفترس.

ولا تكاد تخلو بقعة فى بحار ومحيطات العالم من حوادث هجوم أسماك القرس، وافتراسها لآدميين. وبالرغم من أن عدد الأنواع المفترسة من هذه الأسماك الغضروفية لا يزيد على ثلاثين نوعًا، إلا أنها تمثل مصدر رعب وتهديد للإنسان، فى المياه الدافئة من البحار والمحيطات، وفى الخلجان، وبعض البحيرات المتصلة بالبحر، بل وفى بعض الأنهار الاستوائية؛ فقد أكد بعض العلماء على أن النوع

المعروف باسم (القرش الثور) شوهد يدخل إلى مصبات بعض الأنهار، ويتوغل فى مياه النهر العذبة لمسافات طويلة، بما يوحى بقدرته على تحمل التغيرات الكبيرة فى درجة ملوحة المياه. وقد شوهد القرش (رأس المطرقة)، والقرش الأبيض، بالقرب من شواطئ الخلجان؛ وشاهد كاتب هذه السطور، بنفسه، أنواعًا من الأقراش المفترسة فى مياه خليج (أبى قير)، شرقى مدينة الإسكندرية.

وتلحق أسماك القرش خسائر جسيمة بمصائد الأسماك ذات الأهمية الاقتصادية العالية؛ فإذا تقاطرت أسراب من هذه الأسماك المفترسة النهمة على منطقة من مناطق الصيد المهمة، أثرت بشكل واضح فى المخزون السمكى بالمنطقة، وقللت من قيمتها. أما الخسائر الناجمة عن توقف نشاط بعض المنتجعات الشاطئية، ومناطق الاصطياف، نتيجة لهجمات الأقراش، فهى طفيفة، إذا قورنت بفقدان التجمعات السمكية.

والأنواع المفترسة من أسماك القرش تهاجم وتقاتل ليلاً ونهارًا، وفى مختلف الأجواء والظروف، فى المطر، وتحت السماء الغائمة، وفى الأيام المشمسة، وفى المياه الرائقة أو المعتمة، وعند كل الأعماق، قرب الشاطئ، حيث لا يزيد عمق الماء عن قدم واحدة، وفى البحر الطليق العميق؛ صيفًا فى المناطق المعتدلة، وفى كل شهور السنة فى المياه الاستوائية. والاحتمال قائم دائمًا، أن يتعرض الإنسان فى المياه البحرية لهجمات الأقراش؛ وفى أية حال من حالات النشاط البحرى،

سابحًا أو غائصًا أو صائد أسماك بالحراب أو ضفدعًا بشريًا فى مهمة تحت سطح الماء، أو هائمًا فى سترة نجاة، إذا حدثت كارثة جوية أو بحرية، بسقوط طائرة أو غرق سفينة ركاب؛ وحتى أولئك الذين يركبون الزوارق والقوارب الصغيرة، قد لا يسلمون من هجمات الفك المفترس!

وتشير الإحصائيات إلى أن متوسط عدد حالات مهاجمة أسماك القرش المفترسة للإنسان، فى جميع بحار ومحيطات العالم، هو ٧٥ هجمة، فى السنة. أما التوزيع العالمى لهذه الهجمات، فهو كالتالى:

١ - غرب المحيط الأطلنطى، من نيويورك إلى خليج المكسيك والبحر الكاريبى جنوبًا.

٢ - غرب المنطقة الاستوائية من المحيط الهادى، ومن اليابان إلى استراليا ونيوزيلندا، فى الجنوب.

٣ - الساحل الشرقى لجنوب أفريقيا.

٤ - الساحل الغربى لأمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى.

ومن السهل استنتاج أن أكثر المناطق تعرضًا للهجوم هى الأعلى فى الكثافة السكانية حيث يزيد النشاط البحرى للسكان.

وتشير الإحصائيات إلى أن أسماك القرش هاجمت فرادى (سمكة واحدة مهاجمة، فى كل مرة) بنسبة ٩٤٪ من مجموع الحالات المسجلة، بينما تظهر حالات الهجوم الجماعى للقروش عند وقوع

كوارث غرق السفن أو سقوط الطائرات فى المحيط، فتتقاطر الوحوش إلى المنطقة.

وأهم أنواع القروش المفترسة والأشد شراسة: الأبيض، وماكو، والأزرق، وأبيض الطرف، ورأس المطرقة، والنمر، وأنواع عديدة من طائفة القرش الرمادية. وثمة أنواع أقل شراسة، بل هى كسولة فى أحوالها الاعتيادية، ولكنها تنقلب إلى كائنات متوحشة إذا أثيرت برائحة أو مرأى الطعام، ومن أمثلتها قرش جرينلاند، وأشباهه، بالمحيط الهادى.

أما الدوافع التى تحث أو تستفز القروش لتهاجم، فليست واضحة تمامًا، حتى الآن. وقد درست (١٤٠٦) حالة هجوم، واتضح أن (٩٩٠) حالة منها لم تكن فيها عوامل استفزاز أو استثارة القروش المهاجمة، بينما قامت بالهجوم فى مائة حالة، بسبب إثارتها وإزعاجها، سواء بمحاولة صيدها، أم محاولة النيل منها وجرحها أو ضربها. وكان نصيب ضحايا الكوارث الجوية والبحرية (٩٤) حالة، كما قامت القروش بالهجوم على قوارب صغيرة فى (١٣٨) حالة، أما باقى الحالات من مهاجمات القروش، فلم تكن محددة الملامح.

ومن الحقائق الهامة التى توصل إليها العلماء أن حالات مهاجمة القرش للإنسان تتركز فى مسافة المائتى قدم من خط الشاطئ، وذلك لثلاثة أسباب أو عوامل، هى:

١ - الأصوات المنطلقة من تجمعات المتواجدين فى هذه المنطقة.. إذ تسرى تلك الأصوات فى المياه، فى صورة ذبذبات منخفضة التردد،

وفى موجات متضاغطة، فتلتقطها أجسام القروش وهى تجول بعيدًا عن الشاطئ، فى المياه العميقة، فتتوجه إلى مصدرها، فإذا وصلت إلى المنطقة المحدودة من الشاطئ، وهى منطقة الاستحمام، سهل عليها أن تميز ضحاياها، بالرؤية والشم !

وفى هذا المجال، نذكر تجربة استطاعت خلالها سمكة قرش أن تميز الموجات الصوتية الصادرة عن السباحة غير المنتظمة لسمكة عظمية مجروحة، فاتجهت إليها - وكانت بعيدة عن مجال رؤيتها - وافترستها؛ فما بالك بالحركة الفوضوية، والصخب والضجة، التى يثيرها مجموعة من المصطافين، فى مياه ترتادها هذه الوحوش المتربصة ؟!

ومن دراسة لـ (٢٧٥) حالة هجوم، وجد أن ١٣٢ حالة منها، أى بنسبة تزيد قليلاً عن ٤٤٪، كانت الضحية بصحبة آخرين، وفى مياه عميقة (عشرة أقدام)، بينما سجلت ٨٤ حالة، أى بنسبة ٣١٪، كان الهجوم فيها على آدمى بمفرده، أو على آدمى بصحبة آخرين، ولكن فى مياه يصل عمقها إلى مائة قدم. وعلى هذا، فربما كان من الضرورى ألا يدخل السباحون والغواصون فرادى إلى المياه المشتبه وجود القرش بها؛ ولا يفهم من ذلك أن وجودهم فى مجموعات من اثنين أو أكثر يضمن لهم الأمان. وثمة نصيحة أخرى، توجه إلى مجموعات المصطافين اللاهين فى مياه الشاطئ، ألا ينفصل واحد منهم عن الجماعة، فربما - إذا فعل - يصير فريسة سهلة لأسماك القرش المراقبة من بعيد، والمحومة حول المنطقة.

٢ – العامل، أو السبب الثانى، متصل بالرؤية عند أسماك القرش. ويتفق علماء التشريح على أن عين القرش لا تستطيع أن تميز الألوان جيدًا، كما أنها ليست حادة الإبصار، غير أن لديها القدرة العالية على تمييز الهدف من بين مكونات الخلفية التى تظلله، حتى إذا كان الضوء شحيحًا .

وقد درست (١٥١) حالة هجوم، فوجد أن الضحايا فى ١١٠ حالة كانوا يرتدون ثياب استحمام ملونة غامقة (أزرق أو بنى أو أحمر)، وفى ١٣ حالة أخرى، كانت لغواصين يرتدون بدلة غوص سوداء. واللون الأسود لبدلة الغوص يكون واضحًا تمامًا، عندما يكون موقع الغوص بين القرش، من أسفل، وضوء النهار المتخلل سطح المياه. لذلك، ربما كان من المفيد تغيير ألوان أردية الغوص إلى الرمادى الخفيف، أو الأسمر الضارب إلى الصفرة، مع بعض التشكيلات والألوان الأخرى، بغرض التمويه. وقد صمم اليابانيون ألبسة بحر متميزة، ذات ألوان خاصة للسباحة فى المناطق المهددة بهجمات القرش. وتكثر فى هذه الألبسة الألوان على هيئة أشرطة أو شعاعات.

٣ - أما السبب الثالث، فهو الدم الطازج، المراق فى المياه، وهذا أمر شائع ومعروف للجميع وهو متصل بالقدرة الهائلة لأسماك القرش على تمييز الروائح.

ويجب ألا يؤدى الخوف بمن يهاجمه القرش إلى الاستسلام، فمن الضرورى محاولة التماسك والمقاومة، حتى وإن كانت بالدفع

بالأيدى والركلات، أو بضرب القرش بأية أداة بمتناول اليد، كآلة تصوير، أو مجداف. وفى حالة حدوث هجوم على منطقة معينة، ولم يكن هناك الوقت الكافى ليسرع السابحون بالخروج من الماء، فمن الممكن العمل على إخافة القرش وتعطيل عملياته الهجومية، وذلك بإحداث فقاعات و (رغاوى) فى المياه، فإذا أصر وهاجم المنسحبين، فمن الضرورى مواجهته ومحاولة النيل منه، بضربه فى منطقة البوز. ولتأكيد قيمة هذه النصيحة، تم تصنيف ١٢٦ حالة هجوم، فوجد أن المقاومة أفلحت فى ٦١٪ منها، تراجع القرش المهاجم، بينما لم تؤثر فى ٣٩٪ من الحالات، وعاود القرش هجومه وافتراسه للضحايا. وتؤكد تعليقات بعض ممن نجوا من هجمات القرش على أن ضربات المقاومة تثير القرش وتزيد من شراسته، ما لم تكن هذه الضربات مبرحة ومؤثرة فيه.

ومن الملاحظات الغريبة، أن القرش لا تهاجم - فى الغالب - من يقدم على إنقاذ ضحاياها. بل تظل مركزة على الضحية، لا تفلتها، خصوصًا إذا كانت هجماتها مؤثرة فى الضحية؛ ومن بين ١٤٤ محاولة لإنقاذ ضحايا هجمات القرش، وقع ٢١ فقط من المنقذين ضحايا لنفس القرش.

ولا تمييز عنصرى، بسبب لون البشرة، عند القرش؛ فهى تهاجم البشر أيا كانت ألوان جلودهم. وقد وجد أنه بين ١٦٠ حالة، كان لون بشرة الضحية أبيض فى ٤٦ حالة، وأصفر فى ٨٢ حالة، وأسود فى ٣٢ حالة.

ويبين الجدول التالى أكثر الأماكن، فى جسم الضحية البشرية، تعرضًا لنهشات القرش المهاجم؛ ويلاحظ أنها السيقان، والأفخاذ، والأذرع، أى الأطراف المتحركة.

| الجزء المعرض للهجوم | عدد الحالات المسجلة |
|---|---|
| ١ – الرأس | ١٢ |
| ٢ – الكتف | ٢٠ |
| ٣ – الصدر | ٢٢ |
| ٤ – الخصر | ٦٢ |
| ٥ – الفخذ | ١٤٨ |
| ٦ – الأعضاء التناسلية | ٥ |
| ٧ – السيقان | ٣٠٩ |
| ٨ – الأقدام | ١١٣ |
| ٩ – الأذرع | ١٤٤ |
| ١٠ – الأكف | ١٠٧ |
| ١١ – لحم الجسم كله حتى العظام | ٧١ |
| ١٢ – ابتلاع الجسم بأكمله | ١٨ |

والثابت أن هجمات القرش تتسبب فى نسبة كبيرة من هلاك ضحايا غرق السفن أو سقوط الطائرات فى البحر. وعندما أغرقت السفينة الحربية (نوفا سكوتيا)، بالطوربيدات، أمام خليج (ديلاجوا)، فى الحرب العظمى الثانية، تناثرت جثث البحارة طافية فوق المياه، فى سترات النجاة، بلا أذرع أو أرجل، فاندفعت إلى المنطقة أسراب من أنواع عديدة من القرش لمفترسة، أتت على معظم جثث الضحايا. ويصف بعض الناجين من كوارث الغرق حالة القرش بأنها - خصوصًا إذا سالت دماء الضحايا - تندفع فى حالة من الجنون، ويصبح هلاك كل من فى الماء مؤكدًا. !

وقد لوحظ أن ضحايا هذه الكوارث، الطافين فى سترات النجاة، تزداد فرصتهم فى عدم التعرض لهجوم القرش إذا كانوا فى كامل ملابسهم!. وينصح الخبراء ضحايا هذه الكوارث بالانضباط والتعاون.. فإذا كان ثمة قارب نجاة، فمن الضرورى الإسراع بوضع الجرحى فى القارب، بينما يتعلق غير المصابين بجوانبه، إن لم يكن فيه متسع لهم. أما بالنسبة للطافين فى أردية النجاة، فيجب أن يتماسكوا على هيئة دائرة، ووجوههم للخارج، بينما يبقى الأفراد المصابون فى وسط الحلقة. ويمكن لهذه الدائرة المتماسكة من الأفراد أن تقاوم القرش المهاجم، بضربة فى منطقة البوز، وفى الرأس. ولهذا، تحسبًا لحالات الطوارئ، يستحسن أن يبقى المرء مرتديًا كامل ملابسه، وحذاءه، خلال الرحلات البحرية والجوية.

وقد يسهل ركاب قارب النجاة المهمة للقرش للاستدلال على القارب - تخفيفا للحمولة، أو توفيرًا لمكان لراكب إضافى - يلجأ الركاب إلى إلقاء كميات من الأطعمة المحفوظة، فتلفت نظر القرش!

وقد حدث أن ألقيت عوامة بيضاء اللون إلى الخلف من قارب نجاة، للتقليل من سرعة انجرافه فى اتجاه خاطئ، فعملت العوامة على جذب العديد من أسماك القرش الجائعة، التى تمكنت من فصلها عن القارب، واجتذبتها إلى مكان بعيد، تاركة القارب مضطرب السير؛ ولكن الركاب نجوا من الأسماك المفترسة.

وأكثر القرش مهاجمة للقوارب والزوارق: الأبيض، وماكو، والنمر. وقد حدث أن هاجم قرش أبيض، طوله ١٥ قدمًا، قاربًا لهواة الصيد، وأخذ يعض ألواح قعر القارب، تاركًا بعض أسنانه مدفونة فى خشبها. واستمر قرش أبيض آخر يهاجم قارب صيد لمدة أربع ساعات متصلة، واستطاع الركاب أن يشاهدوا رأسه فوق مستوى جدار القارب. كما أن حالات قفز القرش إلى القوارب معروفة، وتحدث كثيرًا، وثمة رواية عن قرش قفز قفزة كبيرة، تخطى بها قارب صيد.!

وقد سجلت حالات غريبة، اقتربت فيها أسماك القرش من قوارب الصيد، وقوارب النجاة، والأطواق العائمة، لا لتهاجم، ولكن - فقط - لتحك جلدها فى قعر القارب.

وقد عايش كاتب هذه السطور حادثة لن ينساها، عندما اقترب قرش، من نوع النمر، من حافة منصة طافية أقمناها، فى مهمة بحثية، لدراسة ربوبيات القاع عند موقع بمدخل خليج السويس؛ وأخذ ذلك النمر يحوم، محدقًا فينا بعينيه، كأنما يستطلع أحوالنا ونوايانا، ويبدو أنه أدرك أننا من العاملين بالبحث العلمى، وأننا لا نستحق عناء المهاجمة، أو لعلنا، فى أسمالنا التى نعمل فيها بالحقل، لم نفتح شهيته، فلم يلبث أن غادرنا - غير آسف - فالتقطنا أنفاسنا وحمدنا الله.